Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 36:1 (2001)

الإمام أبو بكر الكاساني وكتابه "بدائع الصنائع"

عصمت الله عنايت الله

مساهمة منا في إحياء التراث الإسلامي وتعريف المسلمين بأمجاد الفقه وأئمة التشريع العظام، وبمدى ما قدّموه من خدمات للحضارة الإسلامية والإنسانية، كانت هذه المحاولة المتواضعة، وهي تتناول دراسة موجزة لأحد الأئمة المتخصصين في الفقه المقارن ألا وهو الإمام أبو بكر الكاساني-رحمه الله- وكذا لكتابه البديع **بدائع الصنائع**.

هذا، وكما هو واضح من العنوان، فقد قسمت هذه الدراسة إلى فصلين:

أما أوّلهما: فعن الإمام أبي بكر الكاساني، حياته، ونشاطه العلمي.

وأما ثانيهما: فعن كتابه **بدائع الصنائع**، وغيره من مؤلفاته العلمية الأخرى.

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

الفصل الأول: الإمام أبو بكر الكاساني،حياته ونشاطه العلمي. وهو يشتمل على أحد عشر مبحثا.

المبحث الأول: اسمه ولقبه ونسبه

هو "أبو بكر بن مسعود بن أحمد" ولم تزودنا كتب التراجم والطبقات بأكثر من ذلك عن نسبه وأسرته.

ويلقب بلقبين"علاء الدين" و"ملك العلماء" ولم أقف على تاريخ مولده فيما تيسر لي من كتب التراجم والطبقات.

أما نسبته فهي إلى موطنه الأصلي وهو مدينة" كاسان" بالمهملة. وقد يقال: " كاشان" بالمعجمة. بلدة وراء الشاش من بلدان "ما وراء النهر" أو "التركستان" وبها قلعة حصينة.

قال اللكنوي: و "الكاسان" بالكاف ثم الألف ثم السين المهملة ثم الألف ثم النون.بلدة وراء الشاش.وقد يقال: " الكاشان" المعجمة بدل المهملة[١].

وقال الذهبي: " قاسان" بلد كبير بتركستان خلف سيحون وأهلها يقولون "كاسان". وكانت من محاسن الدنيا"[٢]. وتقع هذه المدينة الآن بنفس الاسم في جمهورية أوزبكستان إحدى الولايات الإسلامية التي تحررت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي في التسعينيات من القرن الماضي.

المبحث الثاني: من نسب إلى كاسان

و"كاسان" كأخواتها من بلاد التركستان "ما وراء النهر" كانت مركزا للعلوم العربية والإسلامية، نشأ فيها وتربى في أحضانها فحول

العلماء ممّن خدموا الحديث والفقه والعلوم الإسلامية الأخرى. ويُعرَف ذلك جليا مِنَ العلماء الذين نُسبوا إلى كاسان والذين نجمل ذكرهم فيما يلي:

١- الشيخ أحمد بن سليمان بن نصر، قاضي القضاة، الكاساني: توفي، في عشر الثمانين والأربعمائة من الهجرة. حدث بسمرقند، وأملى[٣].

٢- الإمام، الأستاذ أشرف بن نجيب بن محمد بن محمد، أبو الفضل، الكاساني؛ توفي بكاشغر سنة ٦٥٩هـ.
من مشائخه شمس الأئمة الكردري، ومحمد بن الحسن بن محمد الدهقان الإمام الكاساني[٤].

٣- الحسن بن نصر بن إبراهيم بن يعقوب الكاساني: ولد في حدود ٤٩٠هـ وتوفي بكشّ في أواخر سنة ٥٥٧هـ. كان فاضلا له شعر. وهو شيخ السمعاني المؤرخ الشهير[٥].

٤- علاء الدين، رزق الله الكاساني: من أئمة الحنفية بدمشق أيام الملك نور الدين محمود بن زنكي. وكانت وفاة الملك سنة ٥٦٩هـ[٦].

٥- عدنان بن علي بن عمر الكاساني: من رجال القرن السابع من أقران شمس الأئمة الكردري، وشيخ أبي الفضل أشرف بن نجيب الكاساني[٧].

٦- علي بن مكي الكاساني: كان مدرّس المدرسة الصادرية بدمشق، قبل علي بن الحسن بن محمد المعروف "بالبرهان البلخي"[٨].

٧- محمد بن يعقوب بن أبي طالب الكاساني: ولد بكاسان سنة ٤٨٠هـ وتوفي بسرخس سنة ٥٥٥هـ. تفقه على محمد بن علي بن حفص، أبي بكر، الحلواني وسمع منه السمعاني بسرخس[٩].

٨- محمد بن أحمد، سعد الدين الكاساني: صوفي تولى مشيخة خانقاه الطاحون بدمشق وقرأ على محي الدين ابن عربي وتوفي سنة ٦٩٩هـ[١٠].

٩- أبو المعالي مسعود بن الحسين الكاساني[١١].

هؤلاء العلماء والمشائخ ذكرتهم على سبيل المثال والإجمال لا الحصر والتفصيل؛ وذلك للتدليل على أن مدينة " كاسان" كانت مركز العلوم الإسلامية، وبها ولد صاحبنا الكاساني.

المبحث الثالث: نشأته وحياته العلمية

تفقه الإمام علاء الدين، أبو بكر بن مسعود الكاساني، على الشيخ محمد بن أحمد بن أبي أحمد السمرقندي المنعوت علاء الدين، وقرأ عليه معظم تصانيفه في الفقه والأصول مثل **تحفة الفقهاء** و **ميزان الأصول** وبرع في علمي الأصول والفروع[١٢].

ولا نعرف شيئا أكثر من ذلك عن طلبه للعلم أو نشأته.

المبحث الرابع: شيوخه وزملاؤه:

لم أقف على أحد من شيوخه الذين تلقى عنهم العلم غير الشيخ علاء الدين محمد بن أحمد صاحب **تحفة الفقهاء** وهذا الشيخ علاء الدين أخذ العلم عن صدر الإسلام أبي اليسر البزدوي

وعن أبي المعين ميمون المكحولي وعن مجد الأئمة السرخكتي.

ويبدو أن الكاساني لازم شيخه السمرقندي مدة غير قليلة وتأثر به، وارتبط وولع بكتبه حتى شرح كتابه **تحفة الفقهاء** في كتاب ضخم سماه **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** وعرضه على شيخه، فازداد فرحا به.

أما أقرانه ومعاصريه فإن عددهم لا بد وأن يكون كبيراً وممن اطّلعنا عليه ممن شاركه في الأخذ والتفقه على شيخه محمد بن أحمد السمرقندي -سواء قبله أو بعده- اثنان فقط وهما:

١- محمد بن الحسين بن ناصر بن عبدالعزيز، ضياء الدين البندنيجي شيخ صاحب **الهداية** الكتاب المعروف المعتمد والمتداول، في الفقه الحنفي(١٣).

٢- فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندية، العالمة الفقيهة، زوجة الكاساني وابنة شيخه علاء الدين السمرقندي، رافقت زوجها في رحلته من بلاد الروم إلى حلب رسولا إلى الملك نور الدين محمود ثم مدرّسا بالحلاوية. وهي التي سنت طعام الإفطار في رمضان للفقهاء بالحلاوية. كان في يدها سواران فأخرجتهما وباعتهما وعملت بالثمن الفطور كل ليلة في رمضان لفقهاء الحلاوية.

أقامت مع زوجها بحلب إلى أن توفاها الله إلى رحمته قبل زوجها الإمام الكاساني(١٤).

المبحث الخامس: زواجه وأولاده.

سبق القول أن الكاساني -رحمه الله- شرح **تحفة الفقهاء** في **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** فازداد شيخه فرحا به. وقد بلغ من شدّة فرحه أن زوجه ابنته فاطمة وجعل مهرها منه ذلك الكتاب الجليل. فقال الفقهاء في عصره كلمتهم السائرة: "شرح تحفته وتزوج ابنته".

وأما فاطمة فقد كانت من حسان النساء، حفظت **التحفة** من تصنيف والدها. وخطبها إليه جماعة من ملوك بلاد الروم فامتنع والدها حتى زوجها من تلميذه المقرَّب الفقيه الكاساني. كانت عالمة فقيهة تفقهت على أبيها، وكانت تنقل المذهب نقلا جيدا. وكان الكاساني ربما يهمُّ في الفتيا فتردّه إلى الصواب وتعرّفه وجه الخطأ فيرجع إلى قولها.

وكانت تفتي، وتخرج الفتوى وعليها خطها وخط أبيها فلما تزوّجت كانت الفتوى تخرج بخطها وخط زوجها الكاساني(١٥).

أما عن أولاده فقد خلف ولداً ذكرا هو محمود بن أبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني(١٦).

المبحث السادس: نظمه للشعر.

ذكر أصحاب السير والتراجم أن الكاساني رحمه الله أنشد من شعره في منتصف شوال ٥٨٣هـ ووُجِد ذلك بخطه على نسخة من خط يده من **البدائع**:

سبقنا العالمين إلى المعالي بصائب فكرة وعلو همّه

ولاح بحكمتي نور الهدى في ليـال بـالضـلالـة مـدلهمّـه
يـريـد الحـاسـدون ليطفئـوه ويـأبـى اللـه إلا أن يتمّـه[١٧].

المبحث السابع: رحلاته ومناظراته العلمية

حفظت لنا دواوين التراجم قصتين من مناظراته ومحاوراته العلمية مع فقهاء عصره. والتي تدل على حدته وذكائه وطول باعه في الفقه المقارن وإلمامه بمذاهب الفقهاء.

فقد تناظر مع فقيه ببلاد الروم في مسألة المجتهدَيْن هل هما مصيبان أم أحدهما مخطئ؟ فقال الفقيه: المنقول عن أبي حنيفة أن كل مجتهد مصيب. فقال الكاساني: لا. بل الصحيح عن أبي حنيفة أن المجتهدَيْن مصيب و مخطئ. والحق في جهة واحدة. وهذا الذي تقوله مذهب المعتزلة.

وجرى بينهما كلام في ذلك فرفع الكاساني على الفقيه المقرعة. فقال ملك الروم: هذا افتئات على الفقيه- يعني أنه اعتدى عليه- فاصرفه عنّا.

فقال الوزير: هذا رجل كبير لا ينبغي أن يصرف بل ننفذه رسولا إلى الملك نور الدين محمود. فأرسل الكاساني إلى حلب[١٨].

وقد يكون هناك -والله أعلم- سبب خفي حمل الملك على الأمر بصرف الكاساني، والانتصار للفقيه يمكن أن نستلهمه من قصة زواج الكاساني بفاطمة بنت محمد السمرقندية الفقيهة وإحدى أجمل نساء المنطقة التي طلبها وخطبها جماعة من ملوك الروم فلم يفوزوا بها ونكحها الكاساني الفقيه المعدم بدون طلب منه لها ولا مهر سوى كتابه **البدائع**.

والقصة بهذا التفصيل تدل على الجو العلمي السائد في ذلك العصر وكيف كان يحظى الفقهاء العلماء بالاحترام والتوقير لدى الملوك والحكام وتشجيعهم للعلم وأهله- إذا لم يكن قصدهم من وراء عقد مثل هذه المجالس للمناظرات، إثارة الحقد والضغائن والخلافات بين العلماء.

كما أنها دليل على حكمة الوزير وتدبيره الذي لم ينقذ عالما من العلماء فحسب بل أسند إليه مهمة السفارة التي كانت بمثابة باب دخل منه الكاساني إلى الحلاوية للتدريس بها.

والقصة الثانية وقعت له في دمشق حيث قدم إليها فاستقبله فقهاء المدينة وطلبوا منه الكلام معهم في مسألة خلافية بين الشافعية والحنفية فقال: لا أتكلم في مسألة فيها خلاف أصحابنا فعيّنوا مسائل كثيرة. فجعل كلما ذكروا مسألة يقول: ذهب إليها من أصحابنا فلان وفلان.

فلم يزل كذلك حتى أنهم لم يجدوا مسألة إلا وقد ذهب إليها واحد من أصحاب أبي حنيفة. فانفض المجلس على ذلك(١٩).

وهذا إنما يدل على أنه كان حكيما في تصرفه، غزير العلم، واسع الاطلاع على فقه الخلاف، طويل الباع في المذهب ومتقناً لأراء فقهاء الحنفية.

المبحث الثامن: تولّيه التدريس بالحلاوية بحلب:

مضى الكاساني في رسالته التي حملها ردا من الملك نور الدين محمود من عاصمته حلب إلى بلاد الروم ثم عاد إلى حلب

ليتولى التدريس بالمدرسة "الحلاوية" التي كانت بمثابة "الجامعة" للتعليم العالي في اصطلاح عصرنا؛ حيث كان تعيين المدرسين للتدريس بها وعزلهم إلى الملك.

وكان رضي الدين السرخسي صاحب **المحيط الرضوي** يدرس بالحلاوية قبله. واتفق أن تواطأ عليه جماعة من الحاسدين وكتبوا فيه رقاعا إلى الملك نور الدين فعزله الملك وكتب خطّ **التعيين** للإمام الكاساني بناء على طلب الفقهاء ذلك منه.

فتولى التدريس فيها مدة من الزمن، يلقي الدروس ويفتي. وتلقاه الفقهاء وطلاب العلم بالرضا والقبول. وكانوا في غيبته يبسطون له السجادة ويجلسون حولها كل يوم إلى أن يقدم ويأخذ مجلسه للتدريس[٢٠].

المبحث التاسع: تلامذته

تخرج عليه جماعة من الفقهاء والعلماء. ولا بأس أن نذكر منهم بعض أسماء من عثرنا عليه في كتب التراجم؛ مع ترجمة موجزة.

١- **ابن الأبيض:**

هو محمد بن يوسف بن الخضر بن عبدالله الحلبي، أبو عبدالله. ويعرف "بقاضي العسكر"، ولد بحلب في صفر سنة ٥٦٠هـ. وتوفي بها فجأة في رمضان من عام ٦١٤هـ. تفقه بحلب على الكاساني وهو شيخ أبي القاسم عمر بن أحمد "ابن العديم" مؤرخ حلب[٢١].

٢- ابن الركابي:

هو محمد بن سعيد بن سلامة، الحلبي، أبو عبدالله. ولد بحلب سنة ٥٦١هـ وتوفي بها سنة ٦١٧هـ. تفقه بحلب على الكاساني[٢٢].

٣- محمد بن أحمد بن محمد بن خميس.

الموصلي، الحلبي، ولد بالموصل سنة ٥٤٢هـ وتوفي بحلب سنة ٦٢٢هـ قرأ الفقه على مذهب أبي حنيفة بحلب على الإمام علاء الدين الكاساني[٢٣].

٤- خليفة بن سليمان بن خليفة بن محمد القرشي، أبو السرايا، الخوارزمي الأصل الحلبي المولد والدار. ولد بحلب سنة ٥٦٦هـ. وتوفى بها سنة ٦٣٨هـ. قرأ الفقه بحلب على الإمام علاء الدين الكاساني[٢٤].

٥- نجا بن سعد بن نجا بن أبي الفضل، شمس الدين.

قال ابن العديم: من علماء أصحاب أبي حنيفة تفقه بحلب على الإمام أبي بكر الكاساني ودرّس بمدرسة بصرى. وهو الذي كتب بخطه نسخة من كتاب شيخه **البدائع**[٢٥].

٦- أحمد بن محمد بن محمود الغزنوي.

تفقه على الكاساني وكان "معيد" درسه. توفي بحلب سنة ٥٩٣هـ[٢٦].

٧- محمود بن أبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني.

تفقه على أبيه "الكاساني" صاحبنا. وتولى الملك الظاهر تربيته واجتهد في اشتغاله بالفقه ولكنه لم ينجب[٢٧].

المبحث العاشر: عزمه على العودة إلى بلاده

كان الكاساني عزم على العودة من حلب إلى بلاده فإن زوجته حثته على ذلك. فلما علم الملك العادل نور الدين محمود بذلك استدعاه وسأله أن يقيم بحلب فعرّفه سبب السفر وأنه لا يقدر أن يخالف زوجته ابنة شيخه. فاجتمع رأيهما على إرسال خادم يخاطبها عن الملك في ذلك فلم تأذن له واحتجبت منه وقالت لزوجها:

أما تعلم أنه لا يحل أن ينظر إلي هذا الخادم. وأي فرق بينه وبين الرجال في جواز النظر".

فأرسلوا لها امرأة برسالة من الملك نور الدين محمود فخاطبتها فأجابته(٢٨).

وهذا يدل أولا على حنينهما للوطن ثم إيثارهما العلم ومصالحه على حنين الوطن. وعلى أن الكاساني كان يحترمها ويكرمها ويحسن العشرة معها. رحمهما الله تعالى. كما أن فيه دليلاً على التزامها بأحكام الشرع وقيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنّصح لزوجها وإن كان عالما- تذكيرا له.

المبحث الحادي عشر: وفاته

وأقام بعد ذلك بحلب إلى أن توفاه الله رحمه الله تعالى. قال ضياء الدين محمد بن خميس الحنفي:

حضرت الكاساني عند موته فشرع في قراءة سورة إبراهيم حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِيْنَ آمَنُوْا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾(٢٩).

خرجت روحه عند فراغه من قوله "وفي الآخرة" وكان ذلك في يوم الأحد عاشر رجب سنة ٥٨٧هـ الموافق ١١٩٢/٨/٣م. ودفن عند زوجته التي كانت قد توفيت قبله ودفنت داخل مقام إبراهيم بظاهر حلب. ويعرف قبرهما عند الزوار بحلب "قبر المرأة و زوجها"(٣٠).

قال العلامة محمد راغب الطباخ:

أقول: وقبره في حجرة عن يمين الداخل إلى مقام إبراهيم الخليل ومحرر على بابها: "بسم الله الرحمن الرحيم: أمر بعمارته مولانا الملك الظاهر غياث الدنيا والدين أبو الفتح غازي بن الملك الناصر. خلد الله ملكه، في سنة أربع وتسعين وخمسمائة"(٣١).

الفصل الثاني: بدائع الصنائع وآثاره العلمية.

ويشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: آثاره العلمية

أما آثاره العلمية فبالإضافة إلى كثير من العلماء والفقهاء الذين تخرجوا عليه وتلقوا العلوم الشرعية عنه وانتفع بهم خلق كثير؛ ألف الكاساني عدة مؤلفات. لم يذكر لنا أصحاب التراجم منها إلا كتابين اثنين فقط.

١- **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ذكره** منسوبا إليه جميع من ترجم له. وسنفرد له كلاما لأهميته.

٢- **السلطان المبين في أصول الدين** وقيل: سمّاه **المعتمد في المعتقد** ذكره ضمن مؤلفاته القرشي والطباخ وكحالة وغيرهم(٣٢).

٣- **الخلافيات** لم يذكره ولا نسبه إليه أحد ممن ترجم للكاساني وكأنهم مجمعون على إغفاله أو لم يتمكنوا من الاطلاع عليه فقد يكون من المفقودات.ولكني أثناء قراءتي **البدائع**، لاستخراج مواد الفهارس الفنية التي وفقني الله تعالى لإتمامها، وجدت المؤلف -الإمام الكاساني- يذكر المسألة ويستدل لها من الكتاب والسنّة و المعقول -كما هو دأبه- ثم يحيل لتفصيل الأدلة على كتابه المسمى **الخلافيات** وقد أورده بهذه التسمية كثيرا، أو **مسائل الخلاف** وقد سماه بهذا الاسم مرتين أو ثلاث(٣٣).

يقول الكاساني مستدلا لأبي حنيفة على عدم وجوب الزكاة في الدَّيْن: "ولأبي حنيفة وجهان أحدهما أن الدين ليس بمال بل هو فعل واجب وهو فعل تمليك المال وتسليمه إلى صاحب الدّين. والزكاة إنما تجب في المال. فإذا لم يكن مالا، لا تجب فيه الزكاة. ودليل كون الدَّين فعلا من وجوه ذكرناها في الكفالة بالدين عن ميت مفلس في **الخلافيات**"(٣٤).

وهذا يدل على أن **الخلافيات** كتاب عظيم نافع ضخم في فقه **الخلافيات** أو في **الفقه المقارن**.

ولا عجب في ذلك فالكاساني أحد الأعلام البارزين المتخصصين في فقه الخلاف كما يظهر ذلك جليا من محاورته العلمية مع فقهاء دمشق الذين طلبوا منه الكلام في مسألة خلافية بين الحنفية والشافعية فحددوا مسائل كثيرة فيقول كل مرة: ذهب إليها

من أصحابنا فلان وفلان حتى تنازلوا عن طلبهم وانفض المجلس على ذلك ولم يتكلموا في شيء.

وقد أغفل المترجمون وأصحاب الطبقات والسير عن ذكر هذا الكتاب العظيم والسفر الجليل الذي يبدو من إحالته عليه في **البدائع** أنه سابق عليه في التأليف. ولا أدري ما السبب؟ فكونه من المفقودات في عصرهم لا يمنع من ذكره ونسبته إليه حيث أن المؤلف نفسه ذكره في **بدائع الصنائع** وهذا دليل يؤكد لنا ويقطع بصحة نسبة الكتاب إليه ولعله لم يكن متداولاً بين الأوساط العلمية آنذاك. ولو كان متوفرا ومتداولا، لذكره جميع من ترجم له.

وقد حاولت - قدر الاستطاعة- أن أبحث عنه في فهارس المكتبات فلم أظفر ببغيتي ولم أعثر عليه مخطوطا.

ونتمنى وعسى أن يكون مدفونا في خزائن الكتب التي لم تفهرس حتى الآن. فكم من كنوز خفية مدفونة لا تزال تنتظر من يخرجها إلى النور من أصحاب الهمم العالية من طلاب العلم وأهله.

٤- كتاب الحيض:

لم يذكره ولم ينسبه إليه أحد ممن ترجم للكاساني ولكنه هو نفسه يحيل عليه بصيغة المضارع- في كتابه **بدائع الصنائع** وإليك التفصيل:

١- يذكر الكاساني -رحمه الله تعالى- أولا مواطن اتفاق وإجماع فقهاء الأحناف في مسألة من استمر بها الدّم استمراراً منفصلا فيقول "إن الطهر المتخلل بين الدّمين إذا كان خمسة عشر

يوماً فصاعداً فلا خلاف أنه يكون فاصلا بين الدّمين... فيجعل أحدهما دما أو كلاهما. ولا خلاف أيضا بين الأحناف أن الطهر المتخلل بين الدمين إذا كان أقل من ثلاثة أيام لا يكون فاصلا بين الدمين" ثم يذكر الكاساني اختلاف الروايات عن أبي حنيفة فيمن استمر بها الدم استمراراً منفصلاً بحيث يدر الدم مرة وينقطع أخرى إذا كان الطهر المتخلل بين الدمين أكثر من ثلاثة أيام وأقل من خمسة عشر يوما، ففيه عنه رحمه الله أربع روايات أولها رواية أبي يوسف عنه ثانيها رواية محمد عنه وثالثها رواية عبدالله بن المبارك عنه ورابعها رواية الحسن بن زياد اللؤلؤي عنه. ثم يحيل الكاساني - رحمه الله تعالى- بعد ذكر هذه الروايات واختلاف الأقاويل على كتاب الحيض له قائلا: "وتقرير هذه الأقوال وتفسيرها يذكر في كتاب الحيض إن شاء الله تعالى"(٣٥).

٢- اختلف أئمة الأحناف في أكثر الطهر الذي يصلح لنصب عادة المرأة إذا استمر بها الدم واستحاضت، كم هو؟ فيذكر الكاساني في كتابه **بدائع الصنائع**(٣٧) أربعة **أقوال**:

١- قول أبي عصمة سعد بن معاذ المروزي،وأبي حازم القاضي.

٢- ثم قول الشيخ محمد بن إبراهيم الميداني وجماعة من أهل بخارى.

٣- ويثلث بذكر رأي محمد بن مقاتل الرازي، وأبي على الدقاق.

٤- ويذكر قول البعض الآخر بدون تحديد له.

٥- ثم يضيف إلى آراء المختلفين، رأيا فقهيا خامسا في النهاية ويقول في الأخير: "ودلائل هذه الأقاويل تذكر في كتاب الحيض".

٣- والحائض إذا كانت أيامها عشرا فطهرت في آخر الوقت بانقطاع الدم ولم يبق من وقت الصلاة إلا مقدار ما يسع للتحريمة يحكم بخروجها من الحيض ويجب عليه الصلاة أما إذا لم تكن أيامها عشرا بل أقل منها فإنه لا يحكم بخروجها من الحيض بمجرد انقطاع الدم ما لم تغتسل أو يمضي عليها وقت صلاة".

يقول الكاساني بعد ذكر هذه المسألة: "وهذه المسألة تستقصى في "كتاب الحيض" ثم يقول: "وإذا كانت أيامها دون العشرة... ومضى عليها وقت صلاة فللزوج أن يقربها عندنا وإن لم تغتسل خلافا لزفر على ما يعرف في كتاب الحيض"إن شاء الله تعالى".

فهذه الإحالات الثلاثة من المؤلف الكاساني على كتاب "الحيض" له تدل على أمور:

١- أن له كتاباً سماه هو نفسه "الحيض" وإن لم يذكره له ولم ينسبه إليه أحد من المترجمين له هذا الكتاب.

٢- وصيغ الإحالات الثلاثة تدل كذلك على أن زمن تأليف الكتاب متأخر من كتاب الطهارة من البدائع حيث يقول فيها: دلائل هذه الأقاويل تذكر في كتاب الحيض "و" تقرير هذه الأقاويل

وتفسيرها يذكر في كتاب الحيض إن شاء الله تعالى "و" على ما يُعرَف في كتاب الحيض إن شاء الله تعالى" يستعمل في الثلاث صيغ المضارع ولم يستعمل في واحد منها صيغة للماضي مما يؤكد أن كتاب "الحيض" لم يكن موجوداً وقت الإحالة. ومعلوم أن بدائع الصنائع لم يحتو على كتاب "الحيض" ضمن كتبه وأبوابه الفقهية. فهذا دليل على أن للمؤلف -رحمه الله تعالى- كتاباً مستقلا في أحكام الحيض والدماء الطبيعية.

المبحث الثاني: بدائع الصنائع للإمام الكاساني.

ذاك الكتاب الجليل الشهير الذي أعجب به شيخ الكاساني، علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي فزوّجه ابنته وجعل الكتاب مهرا لابنته الفقيهة، الصالحة. ثم تداوله الفقهاء وتلقاه أهل العلم بالقبول والرضا في كل عصر ولا يزال في حسناته الجارية مادام ينتفع به.

- وشغفت به منذ بداية دراستي الجامعية.
- والقرشي صاحب **الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية** كثيرا ما يعتمد على هذا السفر الجليل في تحديد الأعلام والشخصيات الفقهية أو توثيقهم بقوله: "له ذكر في البدائع[٣٧].

وهذا دليل على أن أصحاب السير والتراجم الحنفية كانوا ينظرون إلى "البدائع" بأنه سند وعمدة في مواده.

نقل العلامة محمد راغب الطباخ عن ابن عابدين أنه قال في حاشيته **رد المحتار على الدر المختار**:

"هذا الكتاب **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** لم أر له نظيرا في كتبنا"[٣٨].

قال" حاجي خليفة:

"..... وصنف تلميذه الإمام أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي المتوفى ٥٨٧هـ شرحا عظيما في ثلاث مجلدات وسماه **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** وهذا الشرح تأليف يطابق اسمُه معناه"(٣٩).

وقرأت في بعض التراجم للمحدّث الكشميري الشيخ سيّد أنور شاه أنه كان يثني على **بدائع الصنائع** كثيرا ويعجب به ويفضله من بين سائر كتب الفقه الحنفي.

منهجه في البدائع:

والكاساني سلك في هذا الشرح مسلكا لم يسبق به. فهو بديع حقا يستحق كل هذا الثناء والإعجاب.

فهو "لم يتخذ التحفة متنا فيشرحها عبارة عبارة كما فعل كثيرون منهم السرخسي في **المبسوط** على **الكافي** وصاحب **فتح القدير** على **الهداية**. ولم يكمل المعنى بوضع ألفاظ من عنده بين ألفاظ التحفة مميزا ألفاظ الأصل بقوسين كما فعل صاحب **الدر المختار** على **تنوير الأبصار**.

ولم يشرح بعض عباراته بكلمة: "قوله" كما فعل ابن عابدين في حاشيته **رد المحتار على الدر المختار**.

"ولم يكتف بتقريرات أو تعليقات أو تقييدات كما فعل كثيرون "بحاشية ابن عابدين" مثلا. بل إنه لم يلتزم ترتيب التحفة، لا إجمالا من حيث ترتيب الكتب كتاب البيع، كتاب الزواج، كتاب

الإجارة... إلخ - ولا تفصيلا من حيث الأبواب والفصول عند الكلام على الأركان والشروط والأحكام. بل إنه رتّبه ترتيبا جديدا سار به بالصنعة الفقهية شوطا إلى الأمام، ولكنه حافظ على ألفاظ التحفة بحيث يجد الباحث "التحفة". في "البدائع" بلفظها لكن بترتيب آخر. وبهذا المعنى تكون "البدائع" شرحا للتحفة ولولا هذا لكانت "البدائع" كتابا مستقلا"(٤٠).

فهو بالاضافة إلى كونه مرتبا ترتيبا صناعيا بديعا، فإنه أيضاً كتاب سهل العبارة، حسن العرض للمادة الفقهية مما يوفر الزمن لطالب العلم والباحث ويجنبه أن يضيعه في فهم الأساليب وحل رموزها وتفهم عباراتها والكشف عما يراد بها.

كما أن الناظر فيه المنصف، يجد أنه:

١- كتاب مدلل: يذكر الكاساني المسألة ثم يسوق أدلتها من الكتاب والسنة والإجماع والقياس والمعقول.

٢- هو كتاب معتمد في نقل المذهب الحنفي حيث يذكر المسألة وينقل الخلاف -إن وجد- فيها بين أئمة المذهب الحنفي مع ذكر دليل كل منهم.

وكثيرا ما يذكر آراء مشائخ العراق وأقوال مشائخ ما وراء النهر مما لا نكاد نجدها مدونة في غير "البدائع" من كتب الحنفية.

وهو يرجح أو يذكر القول المفتى به عند الحنفية بقوله (ولنا) ثم يسوق ما بنى عليه ترجيحه من الأدلة.

٣- كما أنه يحتوي على آراء مذاهب الفقه الأخرى، المالكية

والشافعية، وأهل الظاهر- أحيانا- والحنابلة بذكر إمامهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل -رحمه الله - وإن كان ذكره قليلاً جدا- وآخرين من الفقهاء المندثرة مذاهبهم ويسوق أدلتهم ويناقشها فهو حقا كتاب الفقه المقارن.

٤- ومن مميزاته أنه حفظ لنا ثروة هائلة من فقه السلف من الصحابة والتابعين وأتباعهم رضي الله عنهم. فلا تكاد تجد مسألة فيها قول لأحد من الصحابة أو التابعين إلا ويذكره.

وبهذا يكون سفرا في الفقه ضخما مدللا معتمدا في المذهب ويحتوي على الفقه المقارن وفقه الصحابة والتابعين رضي الله عنهم.

وبالجملة فهو كتاب جليل في بابه لا يستغني عنه فقيه أو طالب علم.

المبحث الثالث: نسخه وطبعاته:

حظي **بدائع الصنائع** بالقبول لدى الفقهاء والعلماء في كل عصر ومصر. ذكر القرشي في **الجواهر المضيئة** في ترجمة تلميذه المقرب نجا بن سعد، شمس الدين أنه كتب بخطة نسخة **بدائع الصنائع** من خط شيخه. بيضها في سبع مجلدات وهي وقف بالمدرسة الشبلية(٤١).

هذا وقد ظهر للكتاب -حتى الآن- عدة طبعات وإليكم تفصيل ما اطلعنا عليها وهي:

١- **الطبعة الأولى:-**

طبع في مصر سنة ١٣٢٨هـ في سبع مجلدات في الطبعة الجمالية لمحمد أمين الخانجي، وعلى نفقة الشيخ محمد سعد باشا الجابري والحاج مراد أفندي وبتصحيح الشيخ عبدالجواد خلف على نسخة خطية محفوظة في خزانة كتب الحاج عبدالقادر أفندي الجابري. ناسخه: عبدالله بن عبدالرحيم المدعو باللبقى، وتاريخ نسخة: ١١٧٠هـ.

وما زالت المكتبات في بيروت ومصر تنشر وتطبع الطبعات المصورة عن هذه الطبعة الأولى. إلا أن الكتاب لم يخل من أخطاء مطبعية كثيرة حتى في الآيات القرآنية والأعلام وغير ذلك.

٢- **الطبعة الثانية:-**

نشرها زكريا علي يوسف من مطبعة الإمام بالقاهرة في بداية السبعينات. ولم يصرح بالأصل المخطوط الذي اعتمد عليه في النشر. ويقع في عشرة أجزاء. خرّج أحاديث الجزء الأول منه-فقط- الشيخ أحمد مختار عثمان.

ورقّم الناشر أحاديثه من أوله إلى آخره فكانت ٣٠٥٥ ووعد في بداية الجزء الأول منه بأنه سيعمل بعون الله في آخر الكتاب فهرسا تفصيليا على الحروف الأبجدية كما أعلن في نهاية الجزء العاشر منه بأن الأستاذ محمد زكريا المحامي قام بعمل فهارس للكتاب على هذه الطبعة وسيقدمها للطبع إن شاء الله، ولكنه ومع الأسف - لم تخرج هذه الفهارس حتى الآن.

٣- **الطبعة الثالثة**: وقد ظهرت للكتاب طبعة أخرى بتصنيف حاسوبي جديد من دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت الطبعة الأولى عام ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

كتب على غلافه: طبعة جديدة منقحة مصححة بإشراف مكتب البحوث والدراسات بدار الفكر. وكتب مقدمة الناشر الأستاذ صدقي جميل العطار. وقد أتى فيها بالعجب العجاب حيث يقول: وقد سماه مصنفه العلامة الكاساني في خطبة الكتاب **الفقه على المذاهب الأربعة** والأغرب من ذلك أن الناشر حرّف خطبة الكاساني في البدائع لتتوافق مع ما أورده في مقدمته الأستاذ صدقي جميل عطار- ولا ندري ما الذي حمله على ذلك فقد يكون الباعث هي المنافسة التجارية والتحايل على قوانين المطبوعات أو غير ذلك.

وفي كل ذلك لا يهمنا -كباحثين وطلاب علم- إلا الاهتمام بكتب التراث والحفاظ عليها من أيدي المنتحلين والعابثين بها. ولاشك أن هذا التصرف إن لم يكن خطأ مطبعيا -ولا نظن ذلك- فهو نوع من العبث بالتراث الإسلامي وكتبه.

ويقع الكتاب في ستة أجزاء -تم عزو وتشكيل الآيات القرآنية فيه، كمالم يبيّن الناشر النسخة الخطية والطبعة التي اعتمد عليها في إخراج الكتاب.

٤- **الطبعة الرابعة**: أخرجتها دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي - بيروت لبنان. وبين أيدينا الآن- الطبعة الثانية منها عام ١٤١٩هـ-١٩٩٨م بتقديم: فضيلة الشيخ عبدالرزاق الحلبي

وتحقيق وتخريج: محمد عدنان بن ياسين درويش واعتمد في إخراج الكتاب على ثلاث نسخ خطية بينها وهي:

١- نسخة مكتبة الحاج عبدالقادر آفندي الجابر وهي مطبوعة -كما بيّنا في الطبعة الأولى- بالمطبعة الجمالية.

٢- النسخة الثانية: وهي نسخة المكتبة الظاهرية، هي قديمة عليها قراءة في أوّلها - سنة ٨١٧هـ وتملكها محمد بن طولون الحنفي. وهي ناقصة تحتوي من أول الكتاب إلى صلاة الجنازة.

٣- النسخة الثالثة - تتكون في الحقيقة من نسختين يكمل بعضهما البعض مصورة من دار الكتب المصرية: **أولها** نسخت في ٦٥٠هـ وتملكهما قاضي المدينة المنورة في الخلافة العثمانية الشيخ أحمد آفندي.

وثانيها: نسخة أوقفها المعز الأشرف قايتباي على الجامع بجوار الضيافة بمصر.

وتقع طبعة الكتاب هذه في ستة أجزاء، وهي أحسن من الطبعات السابقة -إذ هي مخرجة الآيات والأحاديث ومعزوة الأقوال والآراء الفقهية غالباً وفيه بيان الفروق بين النسخ مع الترجمة للأعلام بدون ذكر مصادرها.

٥- **الطبعة الخامسة**: قامت بإخراجها دار الكتب العلمية - بيروت عام ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م الطبعة الأولى في عشرة أجزاء - وهذه الطبعة أحسن الطبعات كلها للكتاب، إذ هي مشكولة الأحاديث ومعزوة إلى مصادرها التي أخرجتها. أما الآيات فمعظمها

غير مشكولة وبعضها غير معزوة، وكذلك أورد المحققان - كما أثبت على الغلاف - الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبدالموجود - تراجم الأعلام. كما بيّنا النسخ الخطية التي اعتمدا عليها في إخراج الكتاب -وكلها من محتويات دار الكتب المصرية- كما اعتمدا على مطبوعتين للكتاب الأولى مطبعة الخانجي والثانية طبعة مكتبة القاهرة.

وكل هذه الطبعات الخمس للكتاب ليست بها الفهارس العلمية ولا كشافات تحليلية. وهي لا يستغني عنها طالب أو باحث.

وحبذا لو أحال الناشرون للكتاب على الصفحات والأجزاء من الطبعة الأولى كما عمل وجرى عليه الناشر في طبعة كتاب نصب الراية الجديدة التي قام بطبعها أصحاب دار الكتب العلمية. وذلك أنفع للباحثين والطلاب حيث تمت الإحالات على الطبعات القديمة لكونها متداولة.

ويبقى الكتاب - مع وجود خمس طبعات منه- في حاجة ماسة إلى تحقيق علمي يخدم الكتاب خدمة علمية. لأن جميع الطبعات المحققة-!!- للكتاب بتحقيق تجاري. ويوجد منه نسخ خطية كثيرة في مكتبات الآستانة بإستانبول والهند.

وقد قام قسم الترجمة بوقف "مكتبة ديبال سينغ" بمدينة لاهور بترجمة **بدائع الصنائع** إلى اللغة الأردوية وتم نشر وطباعة هذه الترجمة في باكستان.

الفهارس الفنية" للبدائع":

ونظرا لقيمة الكتاب العلمية الرفيعة التي يحتلها بين كتب الفقه فقد استعنت بالله تعالى على خدمته بوضع فهارس له فنية تهم الفقيه، تسهل السبيل أمام طلاب العلم وتوفّر الوقت الثمين للباحثين إسهاما منّي في خدمة الفقه الإسلامي.

وأرجوا أن يوفقني الله سبحانه وتعالى لإتمام هذه الخدمة بتحقيق الكتاب بكامله على أتم نمط في المستقبل إن شاء الله.

وقد وضعت له ثمانية فهارس هي:

١-فهرس الكتب الفقهية حسب ورودها في أجزاء الكتاب.

٢-فهرس الكتب الفقهية على ترتيب حروف الهجاء.

٣-فهرس الآيات القرآنية بعد تخريجها من المصحف وترتيبها حسب السور فأوائل أطراف الآيات.

٤-فهرس الأحاديث النبوية حسب أوائل أطرافها.

٥-فهرس الأعلام.

٦-فهرس الكتب الواردة في المتن.

٧-فهرس الفرق والمذاهب الفقهية.

٨-فهرس الأشعار والقوافي.

وقد ألحقت بها فهرسين مهمين ليتمكن القارئ من تصويب نسخته من "البدائع" وهما.

١-فهرس الأخطاء المطبعية الواقعة في الآيات.

٢-فهرس الأخطاء المطبعية الواقعة في الأعلام.

هذا. وقد اعتمدت في فهرسة الكتاب على الطبعة المصرية الأولى التي صدرت من المطبعة الجمالية عام ١٣٢٨هـ في سبعة أجزاء. وذلك لتداول هذه الطبعة وانتشارها.

هوامش

١- **الفوائد البهية في تراجم الحنفية:** ص ٥٣، تأليف العلامة أبو بالحسنات محمد عبدالحي اللكنوي الهندي، تصحيح: السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعساني، دار المعرفة، بيروت.

٢- انظر: **المشتبه في الرجال أسمائهم وأنسابهم**، ص ٤٩٥، تأليف: أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي. تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى عام ١٩٦٢م، الحلبي وشركاه.

٣- انظر ترجمته في: **الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية** ١/١٧١ تأليف: محي الدين أبو محمد، عبدالقادر بن محمد بن محمد، القرشي الحنفي ٦٩٦هـ - ٧٧٥هـ ، تحقيق: د. عبدالفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، عام ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، **والمشتبه للذهبي**، ص٤٩٦.

٤- انظر ترجمته: **الفوائد البهية** ص ٤٩ **والجواهر المضيئة** ١/٤٤٠- ٤٤١ والطبقات السنية برقم ٥٣٧ للتميمي. تحقيق: د. عبدالفتاح الحلو نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر عام ١٩٧٠م.

وكتائب أعلام الأخيار من فقهاء مذهب نعمان المختار تأليف: محمود بن سليمان الرومي الكفوي. المتوفى ٩٩٠هـ. مصورة معهد المخطوطات العربية رقم ٣٨٩.

٥- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ٢/٩٥-٩٦. **الفوائد البهية** ص ٦٥ **والطبقات السنية** برقم : ٧٣٧.

٦- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ٢/٢٠٣ **والمشتبه** للذهبي ص ٤٩٦.

٧- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ٢/٥٢٥ **والطبقات السنية** برقم : ١٤٢٣.

٨- ذكره القرشي في: **الجواهر المضيئة** ٢/٥٦١.

٩- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ٣/٤٠٢-٤٠٣ **والطبقات السنية** برقم: ٢٣٧٢.

١٠- انظر ترجمته: **معجم المؤلفين** ٣١٠/٨. تأليف : عمر رضا كحاله. مكتبة المثنى لبنان.

١١- ذكره القرشي في: **الجواهر المضيئة** ٤٠٣/٣.

١٢- انظر ترجمته في: **الجواهر المضيئة** ١٤٦/٣-١٤٧، **الفوائد البهية** ص ٦٦.

١٣- انظر: **الجواهر المضيئة** ٢٦/٤ وغيرها من المصادر.

١٤- انظر ترجمتها في: **الجواهر المضيئة** ١٢٢/٤-١٢٤.

١٥- انظر المصادر السابق.

١٦- انظر: **الجواهر المضيئة** ٢٨/٤ **والفوائد البهية** ص ٥٣.

١٧- انظر الأبيات: **الجواهر المضيئة** ٢٥/٤ **وتاج التراجم في طبقات الحنفية**، ص٨٤ تأليف: زين الدين، أبو العدل، قاسم بن **قطلوبغا** المتوفى ٨٧٩هـ ط٢ عام ١٤٠١هـ شركة ايج -ايم- سعيد (إدارة نشر الكتب) كراتشي والطبقات السنية.

١٨- انظر القصة في: **الجواهر المضيئة** ٢٦/٤-٢٧. **والفوائد البهية**، ص ٥٣.

١٩- انظر القصة في: **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم** ٢٤٧/٢. تأليف: أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده طبعة عام ١٤٠٥هـ. دار الكتب العلمية ببيروت. **والجواهر المضيئة** ٢٧/٤.

٢٠- انظر: **الجواهر المضيئة** ٢٧/٤.

٢١- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ٤٥٢/٤.

٢٢- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ٤٧٦/٤.

٢٣- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية** ٥٩/٣ **والطبقات السنية** برقم ١٨٤٢.

٢٤- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ١٧٦/٢ **الفوائد البهية** ص ٧١ **الطبقات السنية** برقم : ٨٤٩.

٢٥- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ٣/ ٥٣١، **والطبقات السنية** برقم: ٢٥٨٣.

٢٦- انظر ترجمته: **الجواهر المضيئة** ٣١٥/١ **تاج التراجم** ص ١٠ **ومفتاح السعادة** ١٥٨/٢.

٢٧- انظر: **الفوائد البهية** ص ٥٣ **والجواهر المضيئة** ٢٨/٤.

٢٨- انظر: **الجواهر المضيئة** (بتصرف يسير) ٤/١٢٣-١٢٤.

٢٩- سورة إبراهيم: الآية : ٢٧.

٣٠- انظر : **الجواهر المضيئة** ٤/٢٧-٢٨.

٣١- **إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء** ٤/٣٠٧ تأليف: محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ الحلبي. الطبعة الأولى عام ١٣٤٣هـ-١٩٢٥م.

٣٢- انظر: **الجواهر المضيئة** ٤/٢٧ **وإعلام النبلاء** ٤/٣٠٦ **ومعجم المؤلفين** ٣/٧٥.

٣٣- انظر: **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** ٦/١٥٤، و٧/٨٠ وراجع من الفهارس في فهرس الكتب: **الخلافيات** للكاساني.

٣٤- **بدائع الصنائع** ٢ /١٠.

٣٥- انظر: ١/٤٠-٤١ منه.

٣٦- **بدائع الصنائع**: ١/٤٤.

٣٧- **على سبيل المثال انظر: الجواهر المضيئة** ١/٤٥٦ ترجمة بشر بن أبي الأزهر و٢/٦٦٥ ترجمة الفضل بن غانم و٤/٢٩ ترجمة أبي بكر الجوزجاني.

٣٨- **إعلام النبلاء** ٤/٣٠٧.

٣٩- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ١/٣٧١ تأليف: مصطفى بن عبدالله الشهير -"حاجي خليفة" وبـ "كاتب جلبي". تصحيح: محمد شرف الدين -رفعت بيلكر. مكتبة المثنى- بغداد.

٤٠- **مقدمة تحقيق : تحفة الفقهاء"** تأليف: محمد بن أحمد السمرقندي، علاء الدين، تحقيق. د. محمد زكي عبدالبر.

٤١- انظر: **الجواهر المضيئة** ٣/٥٣٢.